الجزء الأول

شرح الأشموني

على ألفية إمام النحاة

أبي عبد الله محمد جمال الدين بن عبد الله بن مالك

المولود في سنة ٦٠٠ والمتوفى في سنة ٦٧٢ من الهجرة

محمود محمد شاكر





شرح الأشموني

أبي الحسن على نور الدين بن محمد بن عيسى الأشمونى الشافعى

المولود فى شعبان من سنة ٨٣٨ والمتوفى فى سنة ٩٢٩ من الهجرة

على ألفية إمام النحاة

أبي عبد الله محمد جمال الدين بن عبد الله بن مالك

المولود فى سنة ٦٠٠ والمتوفى فى سنة ٦٧٢ من الهجرة

الجزء الأول

حققه وشرح شواهده

محمد محيى الدين عبد الحميد

المدرس فى كلية اللغة العربية بالجامع الأزهر

الطبعة الأولى

١٣٥٢ هجرية — ١٩٣٣ ميلادية

المطبعة المصرية



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حق حمده، وصلاته وسلامه على سيدنا محمد نبيه وعبده، وعلى آله وصحبه وجنده
رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي، وأن أعمل صالحا ترضاه، وأصلح لي في ذريتي، إني تبت إليك، وإني من المسلمين.

أحمده - سبحانه - استكثارا لفضله، واستدرارا لوابل كرمه، واستتماما لجزيل نعمته وأشكره أداء لما وجب بسابق عطائه، واستزادة من هباته. وأستهديه الطريق الواضح والمحجة التي لا يضل عنها إلا غاو. وأعوذ به من الهمة القصيرة، والمطامع الدنيّة.

وأسأله أن يوالي صلواته وسلامه على رسوله ينبوع الحكمة، وسر الفصاحة، ومعدن المكارم، وجرثومة الفضائل: سيدنا محمد بن عبد الله الذي أنزل عليه الكتاب نورا لا يطفأ مصباحه، وشعاعا لا يخبو ضوءه، وفرقانا لا ينقض برهانه، وتبيانا لا تنهدم أركانه، وهدى به من الضلالة، وبصّر به من العمى، وأقام به دعائم الدين، ونشر به ألوية اليقين. صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين لم تشغلهم عن القيام بحقه زينة ولا متاع، ولا قرة عين من ولد أو مال، ولم تلههم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وعلى من يهتدي بهديه إلى يوم القيامة، وسلم تسليما كثيرا

وبعد: فهذا شرح الامام، العالم، العامل، الصدر، الكامل، المقرىء، الأصولي، أبي الحسن علي نور الدين بن محمد بن عيسى، الأشموني، الشافعي، المولود في شعبان من سنة ثمان وثلاثين وثمانمائة، والمتوفى في سنة تسع وعشرين وتسعمائة، على ألفية إمام النحاة، وحافظ اللغة، أبي عبد الله محمد جمال الدين بن عبد الله بن عبد الله بن مالك الطائي الأندلسي، الجيّاني، نزيل دمشق، المولود في سنة ستمائة من الهجرة والمتوفى في اليوم الثاني عشر من شهر شعبان من سنة اثنتين وسبعين وستمائة [1]، وهو أجل الشروح على كثرتها

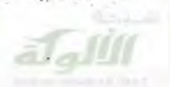
---

(١) ذكر الأشموني في شرحه هذا أن ابن مالك توفي سنة ٦٧٢ عن خمسة وسبعين عاما، ولم نجد أحدا ممن ترجم لابن مالك ذكر ذلك سواه

واختلاف مشاربها وتعدد مناحيها ، وأكثرها مادة ، وأبعدها شوطا فى ميدان الجمع والتهذيب بل نحن لا نبالغ إذا قطعنا بأن هذا الشرح أوفى ما يتناقله قراء العربية اليوم من كتب النحو والتصريف ، وأجمعها لمذاهب النحاة ، وشواهدها ، وتعليلاتها ، والاشارة إلى توجيه شواذها فى عبارة سهلة ، وأسلوب لا تعقيد فيه ولا إغلاق .

وقد كنت شرحت شواهد شرح قاضى القضاة بهاء الدين عبد الله بن عقيل المولود فى سنة ثمان وتسعين وستمائة والمتوفى فى سنة تسع وستين وسبعمائة شرحا مختصرا لم أتجاوز فيه نسبة بيت الشاهد إلى قائله مع بيان مفرداته وإعرابه وموضع الاستشهاد فيه ، ليتناسب مع أذهان قارئيه وحاجتهم ، فأقبل الناس عليه ، وشهدوا بما أفرغت فيه من الجهد ، ثم أسندت إلى إدارة كلية اللغة العربية فى الجامع الأزهر تدريس شرح الأشمونى فرغب الى أبنائى من طلبتها أن أشرح لهم شواهده شرحا تقر به أعينهم وتطمئن إليه نفوسهم ، وتنقع به غلتهم ، وكنت أذودهم عن هذه الطِّلبة وأبين لهم وعورة مسلكها والصعوبة التى يجدها سالكها ، وكانوا يقبلون معذرتى ثم يعاودون ، حتى ثقل على ردهم ، وعظمت على نفسى خيبة رجائهم ، فاستعنت بالله تعالى فأعاننى بحوله وقدرته ، واستخرته فخار لى ، واضطلعت بهذا العمل وأنا أعلم ما فيه من هول ومشقة ، ثم ما يكون بعد ظهوره من حفيظة حاسد ، أو اضطغان حاقد ، ومازلت أواصل البحث ، وأتابع الاستقصاء ، وأقرأ لهذا ولذاك من المصنفين حتى أخرجت هذه الأوراق — بتوفيق الله — من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين . ولم أخل شاهدا من نكتة بديعة : أدبية ، أو لغوية ، أو نحوية ، ولم أترك لعالم قولا فيه فائدة وغناء حتى نقلته وبينت مافيه من صحة أو فساد ، وضممت إلى شواهد الكتاب آلافها ، وجذبت اليها أشباهها ، فجاء الكتاب على هذا النحو موسوعة كبيرة فى قواعد اللغة العربية وشواهدها دانية قطوفها ، سهلة مسالكها ، سائغة مشاربها ، لم أحلئ عنها طالبا بتعقيد الأسلوب أو بعيد الاشارة ، بل كنت أنقل بالمعنى أحيانا لأسلك للبيان أوضح مسلك مع المحافظة على مقصد المنقول عنه وبيان أنى لم ألتزم لفظه ، فان جاء الكتاب بعد هذا كله على ما أردت فانما يرجع فضله إلى أربعة من الناس ، أولهم : والدى رضى الله تعالى عنه وأسكنه بحبوحة الجنة ؛ فهو الذى حبب إلىَّ العلم وشجعنى على تحصيله وإنفاد الجهد فيه ، وثانيهم : إخوانى وأساتذتى من علماء الأزهر وشيوخه ؛ فانهم الذين أناروا لى الطريق وحرضونى على السير فيه ، وثالثهم : أبنائى طلبة كلية اللغة العربية ؛ فهم الذين استثاروا همتى وقدحوا زنادها ،





ورابعهم: الشاب الأديب محمد افندى محمد عبد اللطيف صاحب المطبعة المصرية ؛ فانه الذى أمكن الناس من قراءة هذا الكتاب بقيامه بطبعه على هذا الشكل البديع .

وقد رأيت أن أطبع كتابى مع أصله لأمرين : الأول : ألا يتشعب ذهن القارىء فتنقص الفائدة المرجوة منه ، والثانى : أن أهتبل هذه الفرصة لأخرج للناس نسخة من « شرح الأشمونى » خالية من الخطأ، بريئة من التحريف ، فى منظر يشوق القارىء ويغريه بالمطالعة وأنا أرجو أن يكتب الله لى التوفيق والسداد .

وقد وضعت للأبيات رقما متتابعا من أول الكتاب الى آخره ، فاذا تكرر بيت وضعت له فى المرة الثانية الرقم الذى استحقه فى المرة الأولى لئلا يتكرر القول عليه ، وليسهل على القارىء الرجوع إليه .

وصنعت للكتاب فهارس متعددة : إحداها : لأبيات الشواهد مرتبة على حروف المعجم باعتبار قوافيها ، لا باعتبار أوائلها وقد ذكرت الأبيات كاملة وإن كان الشارح لم يذكر فى بعضها غير قطعة منها ، وحافظت على رواية الشارح وإن كنت قد صوّبت فى تعليقاتى غيرها ، والثانى : للأبيات الواردة فى شرح الشواهد ، سواء أكانت لبيان معنى لغوى ، أو لتأييد مذهب نحوى ، أو لغير ذلك من الأغراض ، وترتيب هذا الفهرس كترتيب الفهرس الأول ، والثالث : للموضوعات مفصلة والرابع : للكلمات المشروحة سواء أورد ذكرها فى الأصل أم فى شرحه ، وسواء أكان شرحها لغويا أم نحويا ، واعتزمت أن أجعل مع كل جزء ما يتعلق به من الفهرس الأول والثالث ، فاذا تم الكتاب جعلت فى آخره فهارس عامة للأنواع الأربعة ، ولو تيسر ضممت اليها فهرسا للأعلام الواردة فى الأصل وشرحه ، وإن لم أكن تعرضت لترجمة واحد من أصحابها

وقد رغب صديقى الأديب الفاضل محمود افندى محمد شاكر أن يكتب فصولا يتكلم فيها عن نشأة اللغة وعلم النحو والطبقات الأولى من نحاة البصريين والكوفيين ليكون ذلك كمقدمة لهذا الكتاب ، فرحبت بهذه الفكرة ، وسررت لها ، وأثبتها له شاكرا

والله سبحانه وتعالى المسئول أن ينفع بهذا العمل كاتبه وطابعه وقارئه ، وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم ؛ إنه الجواد الرحيم ، وهو حسبي ونعم الوكيل ؟

القاهرة فى ربيع الثانى ١٣٥٢
أغسطس ١٩٣٣

محمد محيى الدين عبد الحميد





مقدمة

فى نشأة اللغـــة والنحو
والطبقـــات الأولى من النحـــاة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمـــد لله ، والصلاة والســـلام على رسول الله

أترى لو أن أحدنا التمس من هرته الافصاح عن العلة فى إصاختها حين تسمع صوت صاحبها إذ يناديها باسمها الذى اجتباه لها ، فما يكون جوابها ؟ . . .

لا يداخلنك شك فى أن الهرة لم تفهم من نداء صاحبها ما يفهم هو من معانى النداء ؛ بل كل شأنها حين تصيخ فى دربة أعصاب أذنها ، وتعودها حركة خاصة دربت بها على التكرار والاعادة والمراجعة . وذلك أن مسامع الهرة كمسامع كل حى تصيخ للصوت والنبأة حين تلقفهما الأذن ، فاذا ما التفتت رأت فى حركة وجه المنادى ونظرته وإشارته ماتفهم بغريزة أن هذه كلها من معانى النداء الذى يطلب به الاجابة . فهى فى المرة الأولى والثانية تعيره سمعها وتمنحه بصرها وتكاد تفقه معنى إشارته لها بالمجىء إليه . فلا يزال هو يلح عليها ، ولا تزال هى تطمئن الى إشارته ، وتتدرب على ندائه ، حتى تنقاد لذلك أعصاب السمع ، ويهديها المقدار المشترك من الفهم فى الحيوان كله إلى الحركة نحوه ، فما يناديها بعد بما تعودت عليه أذنها من النداء إلا أجابته سمعا وطاعة

وكذلك الطفل حين ينمو على الأيام ، . . فهو لا يزال يسمع الكلمة إثر الكلمة من أمه وأبيه وعشيرته التى تؤويه لا يفهم لها معنى ، وليست عنده إلا أصواتا مبهمة لا يفرق بين صوت منها وصوت ، حتى إذا بلغ مبلغا يظن أهله أنه بدء انتباهه إلى الألفاظ والأشياء والمعانى أخذوا ينطقون له اللفظ مشيرين إلى الشىء الذى تقع عليه عيناه مرة بعد مرة ، فبذلك تبدؤ أذنه فى التدرب على هذه الأصوات ، وتشترك العين مع الأذن فى إدراك الشىء المشار إليه والتنبه له حين حدوث هذا الصوت بعينه ، فالطفل لا يكاد يعرف هذه الألفاظ ومعانيها بديا الا مقرونة فى ذهنه بالاشارة الى الشىء الذى تدل عليه الكلمة أو المعنى الذى يراد له اللفظ . ولا يزال يتربى على ذلك حتى يبلغ درجة من العلم بمنطق الحروف ، ثم لا يفتأ يقلد صوابا

وخطأ حتى ينقاد له على الزمن ما تعاصى عليه أولا . ولا يكاد يفهم من الكلمات التى دربت بها أذناه الا ما أرسلت عليه من الأشياء أو المعانى الأولى التى اقترنت فى سمعه بصورة ما أشير اليه فى عينيه ، ويبقى الطفل كذلك الى مدى قبل أن تتنبه فيه القوة الانسانية العالية : قوة إدراك ما لايحس ومالا يسمع ومالا يرى . فاذا ماتنبهت فيه هذه القوة بدأ يغنى عن اقتران الاشارة بالأصوات المسموعة من مخارج الكلام . وبدأ يراقب فيما يرى وما يسمع ومايحس خصائص يهتدى اليها بفكره وعقله تقوم لديه مقام الاشارة فى فهمه الأول

ثم لو أنك تركت جماعة من النشأ الصغار وحدهم وأمهلتهم زمناً يطول أو يقصر ومنعت تسرب أحاديث الناس إلى آذانهم لرجعت إليهم وقد أحدثوا لما تقع عليه أبصارهم من شىء ألفاظاً يعبرون بكل واحد منها عن شىء بعينه . وهذه الألفاظ إما أن تكون حكاية صوت أو تمثيل شكل أو تقليد حركة إلى غير ذلك من أساليب التعبير . ولو أنك انتزعت الهمة لمراقبة هؤلاء الصغار فى وطنهم هذا لرأيت أن ما يحدثونه من الألفاظ يجرى اللفظ منها على لسان أحدهم مرة وأخرى ولا يزال يبدئه ويعيده على أسماع أترابه وهم يقلدونه ويحاكونه حتى تذلق به ألسنتهم وتلين له حناجرهم فمن ثم يجرى هذا بينهم لفظاً موضوعا لمعنى خاص أو شىء بعينه . ولا شك عندنا أن هذا النوع من التعبير مما يهدى إليه الطفل إلهاماً وتوقيفاً لا اجتهادا ولا مواضعة

فدربة أعصاب السمع على أصوات بعينها تشير إلى أشياء أو تدل على معان ولزوم الحاجة إلى الاشارة إلى هذه الأشياء أو الدلالة على هذه المعانى هى الدرجة الأولى فى نشأة اللغة على ألسنة البشر

فعلى هذا الأساس نرى أن اللغة الأولى للانسان كانت قليلة الحروف بسيطة التركيب مصحوبة بالاشارة للدلالة على الشىء الذى أرسل عليه اللفظ . فلما أرادت حاجة الاجتماع أن تمد من هذه اللغة وتبسط ، انتقصت من الحاجة الى الاشارة واستبدلت مكانها تخالف الأصوات على الحرف الواحد بانفراج الفم وزم الشفتين وفتحهما ومدهما وتحريك اللسان وتقليبه وموقعه من الأسنان . فلما أحدث الاجتماع حاجة الى المد والبسط أكثر من ذى قبل ، كانت قد نشأت فى الألسنة مرونة تأتت لها من كثرة تقليبها وتحريكها فى الفم فساعدت هذه المرونة على إنشاء حروف كثيرة متقاربة المخارج لا يميز بعضها من بعض الا الجرس فى خفائه ووضوحه وموقع اللسان من الثنايا والأسنان وغار الفم





ولعل هذه الحروف الأولى التى لا نعرفها ولا نعرف عددها (١) كانت هى الألفاظ التى يدلون بها على المعانى ويومئون بها الى الاشياء ، ثم تدرج ذلك على الأيام حتى ركب الحرفان والثلاثة لأشياء حدثت ومعان وقفوا عليها وأرادوا التعبير عنها

وهنا اختلف العلماء اختلافا كبيرا فى نشأة اللغة على الألسنة الانسانية فرموا الحجة بالحجة واستفتحوا أبواباً من الجدل فى أمرها ؛ توقيف هى أم اصطلاح ؟ . فذهبت بهم ألسنتهم مذاهب تستقيم تارة وتلتوى أخرى ، وانتهوا الى مجاهل من القول لا يهتدى فيها دليل . وما خرجوا منها إلا بالقوة على الجدل ، والقدرة على تشقيق الكلام وترقيعه وتلفيقه . والرأى عندنا أن نشأة اللغة لا بد أن ترد الى ما ترد اليه أصول العلوم الانسانية كلها من طبيعة النبوغ فى فرد من الأفراد او أفراد من الجماعة . ولا يفوتنك هنا أن النبوغ إلهام ولا شك ، وأن هناك معانى تتساقط على عقل يشرق فى ظلام زمنه بما سوغ من دقة فى التركيب ورقة فى الاحساس وقدرة على التعبير ، وأن هذه المعانى لا يجدى فى إيجادها استجلاب ولا تحصيل ولا حشد . ولا تحسبن أن النبوغ هذا لا يكون الا فى معانى الشعر أو آراء الفلسفة أو أحكام العلوم ، بل النبوغ اشراق فى الانسانية يوضح لها ما لم يكن واضحا ويهديها الى ما كانت عنه فى ضلال مبين . فالاهتداء الى لفظ واحد جديد للتعبير عن شىء كان مهملا لا لفظ له فى طفولة الانسانية كالاهتداء الى سر سقوط الاشياء من أعلى الى أسفل بالجاذبية فى عصر شباب العلم .

فآدم النوابغ حين كان فى الارض ورأى وأحس وفكر أشرقت عليه معان بقدرها ، وألهم التعبير عنها بما يسر له ، فنطق باللفظ المبتدا المرتجل الذى ألقى اليه إلهاما لا اجتهادا واعتمالا ، وحمل هذا اللفظ قوة مستبدة من روح النابغة الى من سمع منه وأشرق نبوغه على الشىء الذى يبتغون التعبير عنه فلزمهم تقليده وانصاعوا فنطقوا بما نطق به محاكاة لا ارادة فيها الا قليلا .

---

(١) ولا تزال الدلالة على شىء أو معنى بالصوت أو الحركة أو الحرف الواحد مستعملة معروفة فى لغات القبائل من همج افريقيا وغيرها ، ومن هذا الباب انتهى الامام أبو الفتح عثمان بن جنى الى القول بأن الحروف تدل على المعانى ، وقد عقد لذلك فصولا فى كتابيه الخصائص ، وسر العربية ، ونقل عنه من ذلك الباب كثير





فاللغة على ذلك إلهام فرد مرهف الحس مشرق العقل دقيق التركيب قوى الروح مهيأ للتأثير فى غيره تأثيرا كبيرا وكأن هذا النابغة حين ينطق بما ألقى فى روعه من اللفظ المعبر عن الشيء أو عن المعنى المقصود يوحى إلى سامعيه استعمال هذا اللفظ فينقادون غريزة وضرورة الى مجاراته ومحاكاته طائعين (١). وأنت ترى الشاعر الكبير حين يعبر عن شيء الناس يحتاجون الى التعبير عنه ، ويكون تعبيره هذا قويا جذابا مستحكما ، لا يلبث أن يملق هذا التعبير بذهن كل من قرأه ثم يجرى على الألسنة اقتدارا حتى يذيع و يصبح بمكان من اللغة مشرفا واضحا زمنا يطول أو يقصر ولا يجد أهل العصر على ذلك مندوحة من إرساله فى كلامهم وكتبهم ورسائلهم وما يمسه من شؤون حياتهم واجتماعهم فهذا هذا كما ترى

ولا يذهبن عنك بعد ما رأيت أن اللغة إنما هى أداة للتعبير التى يتخذها كائن حى فى الاشارة إلى شيء أو الافصاح عن غرض أو الدعاء فى طلب أو الاعراب عن ضمير نفسه بما يجول فيها فهى على ذلك تجمع الاشارة بالجوارح أو الأعضاء من تلويح بيد أو إيماء برأس أو تقطيب أو اهتزاز أو تصويت أو منطق · هذا عندنا هو الأصل فى المعنى الذى تراد له « اللغة » . ثم قام هذا اللفظ « أعنى اللغة » للكلام المنطوق المركب من أحرف على هيئة بعينها وتتألف من هذه الأحرف كلمات على أوضاع تخص بها ، تدل على معان تختلف باختلاف التركيب والوضع

قلنا إن أداة التعبير الأولى إنما هى من آثار النبوغ فى فرد من الأفراد ، وتساوق النبوغ بعد فى إحداث ما يعبر به عما يرى وما يسمع وما يحس فتكاثرت « الكلمات » التى يعبر بها عن الأشياء والمعانى وتصرمت الأجيال على نماء أدوات التعبير وزيادتها ثم تصرمت الأجيال

---

(١) واعلم أن النابغة يملك قوة مدبرة مصرفة لا يقاومها شيء ، تغلب الناس من أهل عصره أو بعد عصره على هواهم ، وتجري بهم فى مذاهب المعانى والألفاظ والأساليب والعلوم بتصريف عجيب وتدبير غريب حتى تصل بهم إلى غاية منصوبة ، ولا يملك أحد عن ذلك معدلا ولا محيصا . فكان عقل النابغة من هؤلاء بمنزلة الموحى اليهم يلهمهم بما يسر له فلا يجدون بدا من التصرف معه إلى غاية لم يكونوا انتهضوا لها ولا أرادوها . وتلك هى العلة فى أن الناس يعتنون برجل منهم كبير العقل صافى النفس قوي الأثر حتى يصبح خطأه الكبير فوق صواب الناس ، فيأخذون به مسلماً ثم إذا عوتبوا فيه أخذوا يولدون له كل علة من كل شيء ولا يرون فى كل علة إلا صواباً فوق الصواب ، وحقا يعلو على كل حق : حتى يأتى العصر الذى يشرق فيه عقل آخر يزيف ما صححوا فيصرفهم عما كانوا فيه من عماية وضلال . وهذا مرض قديم فى العقل الانسانى لم يبرأ منه مرة واحدة على مدارج التاريخ كلها

« ٢ — مقدمة »



ورأينا لغات متقاربة أو متباينة ، ثم تصرمت الأجيال وقيدت هذه اللغات ووضعت لها ضوابط وقواعد واختصت كل لغة فى جيل من الناس وأمة من الأمم بقواعد وأصول تختلف اختلافا جليلا أو دقيقا عن سائر اللغات التى تعاصرها أو تجاورها .

ونحن لا نشك فى أن اللغة من هذه اللغات نمت فى أحقاب متطاولة إلى أن كانت لها قواعد وضوابط وأصول يرجع اليها . فلو رجعنا هنا إلى القول الذى قلنا به فى نشأة اللغة من طبيعة النبوغ فى فرد من الأفراد ، أو أفراد من الجماعات ؛ لاعترضنا معترض بالشبهة فى هذا القول والشك فى أمره إذ كيف يتفق طبيعة النبوغ فى أفراد من أمة على تطاول الأحقاب اتفاقا مصمتا يكون من أثره أن تقع أنواع الكلمات فى هذه القواعد والضوابط ولا تتعداها ويلزمنا لذلك أن نقول بأن القواعد قد تواضع الناس عليها أولا ثم صاغوا لها الكلمات والأساليب

أما تواضع الناس على القواعد والأصول قبل أن تكون لهم لغة يتفاهمون بها فهذا محال لا يقول به أحد ، فلم يبق أمامنا إلا أن نعرف كيف اتفق هذا فى اللغات التى درست ولم يبق منها إلا آثار وأطلال ، وأيضا فى هذه اللغات التى تحيي الى اليوم متخذة أداة للتفاهم والتراسل والتعليم والتعلم

لاشك أن الكلمات الأولى التى ألقيت على لسان فرد من الجماعة ، ودعت الناس الى تقليدها ومحاكاتها بالنطق قد جعلت فى ألسنتهم مرونة وليانا ومطاوعة فلما اشتدت الحاجة بالناس الى التعبير أو الاشارة لم يجد بعضهم محيصا عن تقليب الاحرف التى عرفوها على ألسنتهم بالتقديم والتأخير فأحدثوا ألفاظا مشابهة للأولى فى بنائها ولم تواتهم الألسنة والطبائع الناشئة منهم بالاعتياد والتكرار على مخالفة الأوزان والصيغ الاولى التى طال عهدهم بها فمرنوا عليها ، فلما ظهر بينهم العقل المشرق الجديد كان قد تلقن فى نشأته أصول لغته أيا كانت بالعادة والمران واستقام لسانه عليها فلما أشرقت عليه أنوار النبوغ اعتمد نبوغه على التوليد من الاصول التى استوضحها عقله الرحب وأدركها حسه المرهف ووزنها وميزها بعضها من بعض من تركيبه الدقيق فكان يكثر منه اتفاق ما يحدث من الأبنية والصيغ مع ما نشأ فيه ودرج عليه وجاء من بعده أتباعه يزيدون على أصوله وفروعه لا يكادون يخرجون عليها حتى يأتيهم من يلقون اليه بالمقادة فى أمر لسانهم وتفكيرهم . فمن هذا ترى أن الاتفاق شيء غير بدع فى أمر الألسنة الانسانية .

ولا يفوتك أن هذا هو الشأن من بعد تفرق الجماعات فى الارض على اختلاف طبائعها

وأجوائها وتغير طبائع الناس وعاداتهم وحاجاتهم تبعا لتغير أرضهم ومنازلهم . استمرت الحال على ذلك حتى استقرت بعض اللغات على طراز خاص إذ ضبطت بالقواعد والأصول التى نسميها علم النحو وعلم الاشتقاق والصرف وعلم البيان

ولعلك تعرف مما مضى أن النحو والاشتقاق والبيان هى من اللغة بمنزلة مفرداتها (١) إذ كانت مرتبطة بها فى تدرجها وارتقائها أوضعفها وانحطاطها ، فلو أنك أردت أن تستغنى مثلا عن الحركات التى سميت فيما بعد حركات الاعراب فى لغة من اللغات لكان لزاما عليك أن تدخل التغيير والتبديل فى مفردات اللغة نفسها وفى اشتقاقها وصرفها وأساليب بيانها أما أن تتخذ مفردات لغة من اللغات وتزوى وجهك عن حركات إعرابها وأساليب بيانها وطرق اشتقاقها وصرفها استجلابا لسهولة استعمالها وسرعة ذيوعها فهذا قتل لكليهما او إفساد فى طبيعة الاشياء لا يقره عقل ولا يجارية منطق

وقد كتبنا هذه الكلمة على قصرها واتساع ميدان الكلام فى أغراضها لنتقدم بالكلام عن نشأة النحو فى العربية ، فلو أتاحت لنا الايام بعد استيفاء الكلام كله فى هذا الاصل أصدرنا بعون الله كتابا مستقلا بنفسه لا ندع فيه كلمة للرأى إلا قلناها ، وعرفنا المبتدعة مكان النحو والاشتقاق والبيان من اللغات ، وفتحنا طريقا لمعرفة سر الاعراب فى العربية ، وأبنا عن معانى الحركات الاربعة فى مواقعها من الكلام العربي ، والله المستعان

(١) أول من نظر فى العربية هذا النظر ، وشرع فى تفصيله والكلام عنه ، هو الامام الجليل أبو الفتح عثمان بن جنى ، ولكنه أدمج القول فيه إدماجا يتعذر معه لطالب هذا العلم أن يدرك مبهماته وخوافيه ، وأن يلقى الشبهات التى تكتنف تفكيره جانبا ، ومع هذا فهو أشتات فى كتبه لم يجمعها باب قائم بنفسه يكون أهدى للقارىء وأقوم عليه

اللغـة والاعراب وعلم النحو

قال شيخنا أبو الفتح عثمان بن جنى : « حضرنى قديمـا بالموصـل أعرابى عقيلى جوثى تميمى يقال له « محمد بن العساف الشجرى » وقلما رأيت بدويا أفصح منه ؛ فقلت له — شغفا بفصاحته ، والتذاذا بمطاولته ، وجريا على العادة معه فى إيقاظ طبعه ، واقتداح زند فطنته — كيف تقول « أكرم أخوك أباك » ؟ فقال كذاك . فقلت له : أفتقول : « أخوك أبوك » ؟ فقال : لاأقول « أبوك » أبدا . قلت : فكيف تقول « أكرمنى أبوك » ؟ فقال كذاك . قلت أفلست تزعم أنك لاتقول أبوك أبدا ؟ فقال : إيش هذا ؛ اختلفت جهتا الكلام ... فهل قوله « اختلفت جهتا الكلام » إلا كقولنا نحن « هو الآن فاعل وكان فى الأول مفعولا » . فانظر إلى قيام معانى هذا الأمر فى أنفسهم وإن لم تطع به عبارتهم

وقال شيخنا رحمه الله : وسألت الشجرى صاحبنا هـذا الذى قد مضى ذكره قلت له : كيف يا أبا عبـد الله تقول « اليوم كان زيد قائمـا » فقال كذلك . فقلت : فكيف تقول « اليوم إن زيدا قائم » فأباها البتة . وذلك أن ما بعد « إن » لايعمل فيما قبلها لأنها إنما تأتى أبداً مستقبلة قاطعة لما قبلها عما بعدها وما بعدها عما قبلها

وقلت له يوما ولابن عم له يقال له « غصن » — وكان أصغر منه سنا وألين لسانا — : كيف تحقران « حمراء » ؟ فقالا : « حميراء » قلت : « فصفراء » ؟ قالا « صفيراء » ، قلت « فسوداء » قالا : « سويداء » واستمررت بهما فى نحو هذا فلما استويا عليه دسست بين ذلك « علباء » ، فقلت : « فعلباء » ؟ فأسرع ابن عمه على طريقته فقال : « عليباء » وكاد الشجرى يقولها معه فلما هم بفتح الباء استرجع مستنكرا فقال : « إه ، عليبى » وأشم الضمة رائمـا للحركة فى الوقف ، وتلك عادة له

قال ابن جنى : وسألته يوما ياأبا عبد الله : كيف تجمع محرنجما ؟ وكان غرضى من ذلك أن أعلم مايقوله ، أيكسر فيقول « حراجم » أم يصحح فيقول « محرنجمات » ؟ فذهب هو مذهبا غير ذين فقال : وإيش فرقه حتى أجمعه !! وصدق ، وذلك أن المحرنجم هو المجتمع ... يقولها مارا على شكيمته غير محس لما أريده منه ، والجماعة معى على غاية الاستغراب لفصاحته ... قلت له : فدع هذا ، اذا أنت مررت بابل محرنجمة وأخرى محرنجمة وأخرى محرنجمة تقول مررت بابل ماذا ؟ فقال — وقد أحس الموضع — : ياهذا ، هكذا أقول : « مررت بابل

محرنجمات » وأقام على الصحيح ألبتة ، استيحاشا من تكسير ذوات الأربع اصاقبتها ذوات الخمسة التى لا سبيل الى تكسيرها ، لاسيما إذا كان فيها زيادة . والزيادة قد تعتد فى كثير من المواضع اعتداد الأصول حتى انها لتازم لزومها نحو : كوكب ، وحوشب ، وضيون ، وهزنبران ، ودودرى ، و قرنفل . وهذا موضع يحتاج الى إصغاء اليه ، وإرعاء عليه . والوقت — لتلاحمه وتقارب أجزائه — مانع منه ، و يعين الله فيما يليه على المعتقد المنوى فيه بقدرته

قال شيخنا : وسألته يوما : كيف تجمع « سرحانا » ؟ فقال : « سراحين » ، قلت : فدكانا ؟ قال : « دكاكين » قلت : « فقرطانا » ؟ قال : «قراطين» ، قلت « فعثمان » ؟ قال : «عثمانون» ، قلت : هلا قلت « عثامين » كما قلت « سراحين وقراطين » ؟ فأباها ألبته . وقال إيش ذا !! أرأيت إنسانا يتكلم بما ليس من لغته ! والله لا أقولها أبدا .... استوحش من تكسير العلم إكبارا له ، لا سيما ومنه الألف والنون اللتان بابهما فعلان الذى لا يجوز فيه فعالين نحو سكران وغضبان

قد عرضنا لسان هذا الأعرابى ولسان ابن عمه لنردك اليهما فى سياق كلامنا هذا عن اللغة والاعراب وعلم النحو لئلا نقطع عليك سبيل الكلام حين لابد لك من الاستمرار

قلنا ان حركات الاعراب من اللغة بمنزلة مفرداتها ، وذلك أنهما درجا معا على الألسنة وتوافقا على أمر من الزيادة والنقصان والابقاء والحذف وعملا فى الألسنة حتى مرنت واستقامت وعملت فيهما الألسنة حتى تهذب منهما ما جفا وما انتشر وما غلظ لما فى طبيعة الانسانية من مداورة ما يجرى معها حتى يخف بعد ثقل ويلين بعد صلابة و يتشابه بعد تنافر ويستقر بعد اضطراب فلما تم ذلك لم يكن هناك محيص من أن تقوم ألسنة القوم ولغتهم على أمر جامع لا يتفرق بها فترتد الى الضعف والانحلال وتباعد الأطراف والفساد واستحالة النماء فكان ما تسميه نحن الآن من الاعراب والنحو والبيان بأسماء اتخذناها أداة للتعبير عن سر معانيها فى الكلام ، قائما فى ألسنة القوم مقام القانون الطبيعى الراسخ الذى لا يتحول ، فكان رفع الفاعل ونصب المفعول عندهم كمخرج الحروف عن اللسان والشفتين واللهاة ولا فرق

ولو أردت أن تقرب هذا المعنى الى فهمك وتوضحه لنفسك فاضرب المثل بالحمار والفرس والبغل فهذه الثلاثة على تقارب شيتها وتشابه أعضائها وتناظر بدنها وتركيبها مميزة فى بصر الانسان ، مفرق بين كل منها بخصائص لا تخطئها الطبيعة الانسانية من طفولتها الى صباها الى شبابها الى فتوتها الى هرمها حتى تصل الى قبر الأبد ، ولا يزال الحمار حمارا والفرس فرسا

والبغل بغلا مهما اختلفت الألوان أو تغيرت البلدان ولا تزال الخصائص المميزة قائمة فيها على هذا الاختلاف والتغير . فكذلك كانت حركات الاعراب والنحو على الكلمة الواحدة على اختلاف مواقعها من الكلام كالشية لها تميزها عن أختها التى هى مثلها فى حروفها وباقى حركاتها حتى أصبحت قائمة فى ألسنة كل قوم على أصول لغتهم متميزة بفطرة الألسنة أو ما صار لها بالتكرار والعادة كالفطرة المرهفة الدقيقة التى لا يختل تمييزها ولا يضعف احساسها بالخصائص الملازمة لشيء بعينه من بين الأشياء المتشابهة

فلا يجولن بخاطرك أن الفتحة والكسرة والضمة والسكون دخيلات على الحروف التى تقع عليها فى أول الكلام وأوسطه وطرفه فجعلت بالوضع للتمييز بين أبنية الكلام أو معانيه التى يدور عليها ، واعلم أن هذه المعانى لا تلم بقلب ناطق باللغة ولا تتعلق بفهمه ، أولا ترى الى صاحبنا الشجرى حين سأله شيخنا وأداره على أن ينطق « أكرم أخوك أبوك » بالرفع فأباها واستوحش وقال : لا أقول أبوك أبداً فلما سأله أن يقول « أكرمنى أبوك » قال « أبوك » وذكر العلة التى يعرفها والتى هى الحقيقة الأولى فى اللغة قبل أن يوضع الاصطلاح النحوى المعقد فقال : « اختلفت جهتا الكلام » فالحركات عند هذا الأعرابى وغيره ممن كان ينطق اللغة سليقة لا اكتساباً وتعملا ، تقع على معانى الكلام وتصرفه ووجوهه دون كد للذهن أو تصريف للسان بعنان من الفكر فكأن الكلمة الواحدة عندنا هى عنده أربع كلمات أو ثلاث وفقا للحركات التى تكون عليها ولكل واحدة فى حالتها معنى أو معان لا يتجاوزها استعماله ولا يطيع بغيرها فى موقعها لسانه ولا فكره ولا فطرته . وهذا غير بدع فى أمر الألسنة فأنت ترى لكلمة « العين » مثلا عند العربى المبرأ معانى متباعدة وأخرى متقاربة وهو يميز بينها ويفصل بين وجوهها من حقيقة ومجاز ولا يكاد يخطىء موضعها من الكلام حين تكون الضرورة لاستعمال هذا اللفظ .

وكذلك القول فى بقية أبواب النحو والصرف والاشتقاق والبيان ، فهذه كلها كانت جارية فى ألسنة القوم مجرى قوانين الجاذبية فما تشذ كلمة عن بابها الذى وضعت بعد فيه من علم النحو أو غيره ؛ لأن قانون الألفاظ الذى يضبط ألسنة كل قوم على سنة لغتهم لا يدع الكلمة تخرج من دائرة تأثيره أبدا مهما كان التشابه قريبا بين الكلمتين اللتين يسوغ العقل إلى مدى اختلاط إحداهما بالأخرى فى تصريفها أو وضعها أو تقليبها على وجوه الجمع والتحقير وغير ذلك .

ألا ترى إلى صاحبنا الشجرى كيف جمع سرحانا وأشباهها على سراحين فلما دس له شيخنا أبو الفتح «عثمان» بين هذه المتشابهات لم يقل إلا «عثمانون» وأبى «عثامين» فلما سئل عن العلة لم يكن جوابه إلا تعجبا من أمر سائله وشكا فى علمه ومعرفته فقال إيش ذا !! أرأيت انسانا يتكلم بغير لغته ؟ فهذا الأعرابى لا يعرف قياسا ولا علما ولا ألفا ونونا بل كل ما يعرفه أنه إذا رأى سرحانا وسرحانا وسرحانا قال هذه سراحين وذلك لأن الفرد فى طبيعة الانسان ونظره وفكره غير الجماعة فهو محتاج إلى لفظ غير لفظ الشيء المفرد ليعبر عن عدة أفراد من هذا الشيء نفسه فاختار له بالطبيعة لفظا آخر يقارب اللفظ الذى يدل به على المفرد ، وهذا ما نسميه نحن بالجمع . وهذا المفرد وجمعه يضمان بين أحرفهما تاريخ نشأة هذه الكلمة وتاريخ تدرجها فى اللسان والذى نسميه نحن بالاشتقاق والأصل ، وعثمان وعثمانون مفرد وجمع فيهما تاريخ نشأتهما وتدرجهما فى اللسان ، فلما اختلف تاريخ نشأة هذين اللفظين المفردين «عثمان وسرحان» وتدرجهما فى اللسان خالفت فطرة اللسان بين جمعيهما مخالفة ظاهرة ، فاعلم من ذلك أن الحرفين إذا اتفق تاريخ نشأتهما وتدرجهما فى اللسان كان القانون الذى يجريان عليه واحدا فى لسان أهل اللغة ، دون أن يعرفوا لذلك علة مقررة ، وما العلة عندهم إلا أن هذه لغتهم وحسب .

وهذا باب من القول لم نستوفه لضيق الوقت والتزامنا إخراج هذا الجزء من الأشمونى فى ميعاده الذى ضرب له . ونحن لا نفتات على اللغة بما لا ترضاه ولا تقره ولا نذهب بها مذهبا هى إلى غيره أميل ، ولا نضعها موضعا هى فى غيره أشرف وأنبل . فلذلك نعد القراء بأن نوافيهم قريبا بكتاب واسع المضطرب نزيد فيه الرأى وضوحا ونقف عند كل كلمة منه مع القارىء نبين له ونوضح حتى نقرر المذهب الذى نذهب اليه فان ارتضاه اعتقده وإن أباه رد علينا فساده ونبذه والله المستعان

سبب وضع العربية :

رأينا قبل أن اللغات نشأت مضطربة على الألسنة ، وعملت فى الألسنة عملها ، وعملت فيها الألسن والعقول والحاجات عملها أيضا ، وكان عمل الألسنة تهذيبا وإدارة وتنقية وجمعا لما فى طبيعة الانسانية من مداورة ما يجرى معها حتى يخف بعد ثقل ، ويلين بعد صلابة ، ويتشابه بعد تنافر ، ويستقر بعد اضطراب ؛ ليكمل ذلك كله للغة النماء والقوة والاستحكام

لئلا تضعف وتنحل وتسقط و ينتشر ما اجتمع من أمرها ، واستمر هذا التدرج فى الألسنة حتى وصلت الى حالة من الاستقرار وفقا لتدرج التمدن فى الارتقاء والنمو الى درجة من الاستقرار والثبات

* * *

هذا وقد كنت أود أن أسير بالقارىء فى الجزيرة العربية من أول عهود التاريخ التى وصلتنا إلى العهد الذى احتفت فيه بنور إسماعيل عليه الصلاة والسلام ، وما كان من أمر هذه الجزيرة بعد ذلك إلى أن استقر اللسان العربى على حالة بين بين فى القرنين السابقين لاشراق نور النبوة فيها وهبوط الوحى بالمعجزة الباقية يد الدهر على محمد رسول الله وخاتم النبيين صلى الله عليه وسلم ، ولكننى أفضل الآن لهذه الكلمة الموجزة أن يكون بدء القول فى أمر لغة العرب من العهد القريب السابق لرسالة رسولنا صلى الله عليه وسلم

قال التاريخ إن هذه الجزيرة العربية — التى تحدها من الشرق بلاد فارس ، ومن الغرب بحر القازم ومشارف الشام وأطراف مصر ، ومن الشمال أرض الشام وفيها غسان والروم ، ومن الجنوب بحر الهند — قال : كانت هذه الجزيرة منزلا لقبائل تفرقت فى أوديتها وحزونها وأباطحها وبيدائها ، وكان جل اعتماد أهلها على الرحلة من مكان إلى مكان فى طلب الغيث وانتجاع المرتع والتصرف فى وجوه التجارة ما بين جوانبها وبين مصر والشام وبلاد الروم وأرض الحبش وديار فارس ، وتصرمت على أمرها هذا الحجج الطوال ، فكانت هذه القبائل تتكلم عدة لهجات منها العربية التى وصلتنا — والتى يسمونها لغة قريش — ولا شك فى أن هذه القبائل — التى تسكن جزيرة العرب وتعمرها — كانت تتلاقى بالجوار والترحال والتجارة فكان الرجل من قبيلة إذا نزل بأرض قبيلة أخرى لم يعسر عليه أن يكون بينهم كأحدهم منطقا وإفهاما وتفهما وإلا لتدابرت هذه القبائل وتقطعت الصلة بينها ولكان التاريخ قد قذف بها جميعا من سجله ولم يصلنا من شعرها ولا أخبارها ولا لهجاتها شىء أبدا ؛ فهذا دليل على أن هذه اللهجات التى اتخذتها القبائل كانت قليلة التخالف كثيرة التشابه متدانية الأصول . فلذلك قام أمر العرب قبل الاسلام على الاجتماع فى أسواق ذكرها التاريخ ووصلنا شىء لا بأس به من أخبارها ، فكانت العرب تلتقى فيها للتجارة وإنشاد الشعر والتفاخر والتحاكم والتحالف وغير ذلك من شؤونها ومصالحها وحدثنا التاريخ أن اللهجة التى كان

يرجع اليها العرب فى أمر لسانهم هى لهجة قريش التى نزل بها الوحى على أمين الله فى أرضه والشاهد على الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان ذلك مبدأ اتفاق اللهجات المختلفة على أمر جامع لا يتفرق بها الى مذاهب الضعف والانحلال ، وبهذه الأسواق الجامعة لأشتات القبائل ونزاعها وأشرافها وصميمها وفصحائها وشعرائها بدأت لهجات اللسان العربى تخف بعد ثقل وتلين بعد صلابة ، وتتشابه بعد تنافر ، وتستقر بعد اضطراب ، حتى جاءتهم المعجزة التى ألقوا اليها بالمقادة واتبعوها كارهين وطائعين وتوافدوا اليها وهم من كل حدب ينسلون . وقام القرآن على ألسنتهم فضبطها وألف بينها كما ألف بين قلوب أهلها بعد الشقاق والتناحر والعداوة والبغضاء . فلانت بالقرآن ألسنة القبائل وزادت مطاوعة وليانا باجتماع رجالها فى الجهاد وهم على قلب رجل واحد أحباء لا يتنابذون ولا يتدابرون

وكانت هذه الأسواق تجمع أفذاذ العرب ونوابغها وتوقظ فيهم القوى الانسانية كلها ، خيرها وشرها . ومن تلك القوى التى تنبهت فى أفراد من العرب قوة الادراك اللغوى ؛ فكان يقوم هؤلاء الأفراد مقام القضاة على قضايا اللسان العربى : فمن هؤلاء النابغة الذبيانى وغيره . فكان يعرض عليهم شعر القبائل فيزيفون منه زيفه ويردون ساقطه ، ويعلون عاليه ، ويشهدون لجيده . ولعل نظرة هؤلاء القضاة كانت نظرة شاملة فى المعانى والألفاظ ومواقعها وقوتها واختلالها ، وكانوا قد عرفوا بما ركب فيهم من أسباب النبوغ أحكاما صحيحة عن أساليب البيان وأنواع الخطأ الذى يدرك اللسان على قلته وخفائه ، وكانت أحكامهم هذه لا تعرف الاصطلاح والوضع ولكنها كانت أحكاما فطرية كما رأيت من قول صاحبنا الشجرى « اختلفت جهتا الكلام » وقوله فى المرة الأخرى « أرأيت إنسانا يتكلم بما ليس من لغته » وغير هذا من الأمثلة الكثيرة التى لم يسعفنا الوقت بلم شعثها وتقييد نصوصها فى هذا المكان فكان تنبه هذه القوة فى هؤلاء الأفراد ، وسيرورة ما يحكمون به على الشعر والخطابة ، هو بدء وضع علم العربية الذى سموه فيما بعد نحواً وبياناً واشتقاقا وتصريفا

فلما ظهر الاسلام على الوثنية وغلب الروم والفرس على أمرهم واستفاض الفتح وتدفقت العرب فى بلاد الله وأسلمت الأعاجم أوجلها فاستقبلت الجزيرة العربية للحج والتكسب وتزاوج العرب من الأمم الأخرى واختلطت الألسنة الفصيحة بألسنة العجم والروم والنبط ، تغيرت حاجة العربية بعد استقرار لسانها ، فبعد أن كانت الأسواق التى تجمع العرب هى الحاجة

وهى الضرورة لتهذيب اللسان العربى ، صارت الضرورة فى أمر آخر يكون حما كما للسان العربى لئلا ينزلق الى مهوى من الضعف ، ويكون سوراً منيعا ليرد الدخلاء ، ويكون منارا ليهدى من ضل عن سبيله . واعلم أن هذه الحاجة لم تشتد إلا بعد اتساع الفتوح الاسلامية وتوافد الأعاجم على البلاد العربية مسلمين ، وذلك فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ومن تلاه من الخلفاء الراشدين ثم استمر الأمر على ذلك إلى أن ظهر رجال ضبطوا اللسان بأحكام وأصول سموها النحو

قالوا : إن أول من وضع هذه الأحكام والأصول على بن أبى طالب كرم الله وجهه وذلك لما روى عن أبى الأسود الدؤلى رحمه الله أنه قال : دخلت على أمير المؤمنين على عليه السلام فوجدت فى يده رقعة فقلت :ما هذه يا أمير المؤمنين ؟ فقال : « إنى تأملت كلام العرب فوجدته قد فسد بمخالطة هذه الحمراء - يعنى الأعاجم - فأردت أن أضع شيئا يرجعون إليه و يعتمدون عليه » . وفيها مكتوب : الكلام كله : اسم وفعل وحرف ، فالاسم ما أنبأ عن المسمى والفعل ما أنبئ به ، والحرف ما أفاد معنى غير هذين . وقال لى : « انح هذا النحو ، واضف إليه ، ماوقع اليك ، واعلم - يا أبا الأسود - أن الأسماء ثلاثة : ظاهر ومضمر واسم لا ظاهر ولا مضمر ، وإنما يتفاضل الناس - يا أبا الأسود - فيما ليس بظاهر ولا مضمر ، وأراد بذلك الاسم المبهم » . قال : ثم وضعت بابى العطف والنعت ، ثم بابى التعجب والاستفهام ، إلى أن وصلت إلى باب « إن وأخواتها » ماخلا لكن ، فلما عرضتها على على عليه السلام أمرنى بضم لكن إليها . وكنت كلما وضعت باباً من أبواب النحو عرضته عليه رضى الله عنه إلى أن حصلت ما فيه الكفاية . فقال : « ما أحسن هذا النحو الذى قد نحوت » . فلذلك سمى النحو . وروى أن سبب وضع على عليه السلام لهذا العلم أنه سمع أعرابيا يقرأ « لا يأكله إلا الخاطئين » فوضع النحو

هذا وقد كثرت الروايات فى سبب وضع هذا العلم وأول من وضعه . وأكثر هذه الروايات باطل لا يقوم بحجة ولا يقعد . وهذه الكلمة لا تكفى لذكر كل رواية وعلتنا فى تزييفها وردها ، وإقامة الحجة على صواب ما نذهب إليه من أن أول من اهتدى إلى وضع ضابط لبعض وجوه هذا اللسان العربى هو أبو الأسود الدؤلى رضى الله عنه ، وكذلك اختلفت الرواية فى أول باب وضعه أبو الأسود من علم العربية . والذى نذهب إليه على ضلال المذهب وتعقده ، وانتشار أمره ؛ أن أول ماوفق الى التنبه له أبو الأسود هو باب الفاعل وذلك لكثرة

دوران الجملة الفعلية على لسانهم وظهور الرفع على طرف الكلمة ظهورا بيناً لأن الضمة هى أثقل الحركات على اللسان العربى

واعلم أن هناك مذهبين للرأى فى أول ماوضع من علم النحو : — أحدهما أن أول ماوضع أبو الأسود من أبواب النحو ما وقع فيه اللحن ، وهذا ما ذهب إليه جمهور النحويين أصحاب كتب التراجم الذين ترجموا للغويين والنحاة ، والآخر : أن علم النحو وضع على أساس من التفكير فى استنباط قواعد للعربيـة تضبطها وأصول يبنى عليها ، فأول ما يوضع من القواعد ما يكون أقرب إلى متناول الفكر فى الاستنباط

ونحن لا نستطيع أن نزيف الرأى الأول إذ كان هو الذى وردت به الرواية الصحيحـة مهما اختلف فى الذى وقع فيه اللحن من ابواب العربية ، فقد رأيت قبـل أن سبب وضع العربية أن عليا رضى الله عنه سمع أعرابيا يقرأ « لا يأكله إلا الخاطئين » ،

وقالوا : إن أعرابيا قدم المدينة فى زمان عمر رضى الله عنه فقال من يقرئنى مـا أنزل الله ، فأقرأه رجل (براءة) فقرأ : « ان الله برىء من المشركين ورسوله » بكسر اللام من رسوله فقال الأعرابى : أوقد برىء الله من رسوله ، إن يكن الله قد برىء من رسوله فأنا منه أبرأ . فبلغت مقالة الأعرابى عمر فاستوثق عمر من الخبر فلما عرفه أمر أن لا يقرىء القرآن إلا عالم باللغـة ودعا أبا الأسود فأمره فوضع النحو

وقالوا : إن سبب الوضع أن ابنة أبى الأسود قالت له يوما : يا أبه ! ما أحسن السماء ! فقال: أى بنية ! نجومها ! قالت إنى لم أرد أى شىء منها أحسن ، إنمـا تعجبت من حسنها ، قال : إذن فقولى ما أحسن السماء . فحينئذ وضع كتابا . . . . الى غير ذلك من الروايات

ولا شك أن همة أبى الأسود لم تنهض الى الفكر فى وضع أصول تضبط بها العربيـة أو أبواب منها إلا بعد أن بدر اللحن على لسان المسلمين من الأعاجم ومن كثر اتصاله بالأعاجم ولغاتها من العرب حتى دخل الضيم على لسانه فأفاتت منه فطرته الفصيحة وهذا نادر لا تكاد تجده فى الزمن الأول أبدا

غير اننا لا نقول بأن أول ما وضع من أبواب العربية هو ما وقع فيه اللحن بل نقول إن ما وقع فيه اللحن هو الذى دفع أبا الأسود الى التفكير فى وضع ضوابط للعربية وقد جاء فى الرواية عن ابن الأنبارى قال : حدثنا يموت — يعنى ابن المزرع — حدثنا أبو حاتم السجستانى سمعت محمد بن عباد المهلبى ، عن أبيه قال : سمع أبو الأسود الدؤلى رضى الله عنه « أن الله برىء

من المشركين ورسوله » بالجر فقال : لا تطمئن نفسي إلا أن أضع شيئا أصلح به لحن هذا ، أو كلاما هذا معناه

ونحن نرجح أن أبا الأسود إنما عنى بكلمته هذه ما أشاروا اليه في روايتهم من أن أبا الأسود أتي بالمصحف واختار من عقلاء الرجال رجلا من عبدالقيس فقال له : خذ المصحف وصبغا يخالف لون المداد الذى كتب به فاذا أنا فتحت شفتي فانقط واحدة فوق الحرف وان ضممتهما فاجعل النقطة الى جانب الحرف ، واذا كسرتهما فاجعل النقطة في أسفله ، فان أتبعت شيئا من هذه الحركات غنة فانقط نقطتين فابتدأ بالمصحف حتى أتى على آخره . . . ثم إن أبا الأسود بدأ يفكر في وضع قواعد لضبط الكلام

فالرأى عندنا أن يكون ما وقع فيه اللحن هو الذى استنهض أبا الأسود لوضع العربية ، ولا يلزمنا أن نقول إن أول ما وضع من أبواب العربية هو الباب الذى وقع فيه اللحن . ومن هنا تمهد سبيلنا للمذهب الآخر الذى قلنا به من أن أبا الأسود اجتهد في استنباط القواعد فوقعت له أبواب وضع لها قاعدة لم يبعض ما فيه ، وقد قلنا قبل : إننا نذهب الى القول بأن أول باب وضعه أبو الأسود هو باب الفاعل وقد روى الشيخ الجليل الامام السيرافي أن السبب في وضع العربية أنه مر بيابا أبي الأسود سعد الفارسي (هو سعد بن بالويه الفارسي شهد الردة وأبلى بلاء حسنا) وهو يقود فرسه فقال له : مالك ياسعد لا تركب ؟ فقال : إن فرسي ضالع (أراد ظالعا) [1] فضحك به بعض من حضره فقال أبو الأسود : هؤلاء الموالى قد رغبوا في الاسلام ودخلوا فيه فصاروا لنا إخوة فلو علمناهم الكلام فوضع باب الفاعل والمفعول به ولم يزد عليه وذكر مثله ابن حجر في الاصابة عن ابن أبي سعد . وهذه الروايات وان كانت لا تقوم دليلا على

---

(١) وأنت ترى هنا أن الخطأ لم يكن في وضع حركة من حركات الاعراب في غير موضعها بأن نصب ما يستحق رفعا أو رفع ما أمره الكسر ، بل أخطا سعد بن بالويه في منطق حرف من حروف العربية خلط بينه و بين حرف آخر يشبهه ، فانظر إلى قول أبي الأسود بعد « فلو علمناهم الكلام » ثم التعليق على ذلك بقول الراوى « فوضع باب الفاعل والمفعول » فان سعدا لم يلحن في إعراب ولكنه لحن في مخرج حرف من الحروف ، وذلك لا يكون من جرائه أن يضع أبو الأسود باب الفاعل والمفعول به ، إلا أن يكون هذا الخطأ من اخطاء كثيرة قبله في أبواب من النحو كانت دواعي في صدر أبي الأسود تحفزه للتفكير في وضع ضابط للسان قومه يقيهم مزلة اللحن ، ويتعلم به الغريب عن لسانهم كيف ينطق الصواب أو كيف يتقى الخطأ إذا أوشك أن يقع فيه

مذهب بعينه لكثرة اختلافها وتباعد ما بين أطرافها إلا انها تجنح بنا الى الاطمئنان الى الرأى الذى نذهب اليه (١) . وذلك أننا نظرنا فوجدنا ان ابا الاسود حين خلا يفكر فى ضبط الكلام أخذ يعرض على فكره صور الكلام العربى فأول ما يعرض من ذلك أكثر الصيغ دورانا على اللسان كقولهم ركب سعد الفرس وكذا وكذا من الجمل الفعلية فلما وجد أن الذى يخبر عنه بأنه قد ركب أو فعل شيئا ما يقع من الكلام أبدا مضمرما وقع له الرأى بأن من فعل الركوب أو غيره يجب أن يقع فى مثل هذه الصيغة مرفوعا أبدا ثم بدا له باب المفعول به وهو الذى وقع عليه فعل هذا الفاعل فرآه منصوبا أبدا فأمره على ذلك . ويلى هذين باب المبتدأ والخبر لتدانى الشبه بينه وبين هذين البابين ، ولعل أبا الأسود وقف عند هذه الأبواب الثلاثة ولم يزد عليها(٢)

ثم تلقى هذا عن أبى الأسود رجال من العرب فأخفق كثير منهم فى زيادة شىء على ماتلقوه منه فقد ذكر السيرافى أن أبا الأسود لما وضع باب الفاعل والمفعول به زاد فى ذلك الكتاب رجل من بنى ليث أبوابا ثم نظر فاذا فى كلام العرب مالايدخل فيه فاقصر عنه ، قال السيرافى : ولعل هذا الرجل هو يحيى بن يعمر

وكانت الطبقة الأولى التى أخذت القراءة — قراءة القرآن — عن أبى الأسود وتلقت منه

---

(١) روى ابن النديم صاحب الفهرست عن محمد بن اسحاق أن رجلا بمدينة الحديثة اسمه محمد ابن الحسين و يعرف بابن أبى بعرة قد آلت إليه خزانة صديق له كان مشتهراً بجمع الخطوط القديمة ، قال ابن اسحاق « فرأيتها وقلبتها فرأيت عجبا إلا ان الزمان قد أخلقها وعمل فيها عملا أدرسها . . » ثم قال « ورأيت (عنده) ما يدل على أن النحو عن أبى الأسود ماهذه حكايته . . . . وهى أربعة أوراق أحسبها من ورق الصين ترجمتها هذه ، فيها كلام فى الفاعل والمفعول من أبى الأسود رحمة الله عليه بخط يحيى بن يعمر وتحت هذا الخط بخط عتيق « هذا خط علان النحوى » وتحته « هذا خط النضر بن شميل »

(٢) قدم سيبويه فى كتابه باب المبتدأ والخبر (وهو المسند والمسند إليه) على باب الفاعل والمفعول به ، وهذا عندنا لعلة لم نجد أحدا ذكرها ممن تقدمنا فى هذا العلم ، وذلك أن سيبويه لما رأى اتفاق حالى المسند والمسند إليه فى الرفع والاسمية واختلاف حالى الفعل مع الفاعل والمفعول به بين الرفع والنصب والفعلية والاسمية ، قدم ما اتفق على ما اختلف ، وهذا صنع جيد ونظر دقيق من الامام الكبير سيبويه

الكلام عن الأبواب التى وضعها من النحو ، وسمت سمته فى تتبع الكلام العربى جهد الطاقة لوضع القواعد التى بنى عليها — نفر يعدون : نترجم لكل منهم باختصار بعد الكلام عن أبى الأسود رحمه الله

أبو الأسود الدؤلى

لم يذكر أصحاب التاريخ والتراجم مولد أبى الأسود ولكن أكثرهم قال إنه مات فى الطاعون الجارف الذى وقع بالبصرة فاهلك أهلها إلا قليلا وذلك سنة ٦٩ من الهجرة وكانت سنه خمسا وثمانين سنة غير أن المدائنى قال : « إنه مات قبل ذلك » وهذا أشبه القولين بالصواب لأنا لم نسمع له فى فتنة مسعود وأمر المختار بذكر ، قال أبو الفرج فى ترجمة أبى الأسود (ج ١١ ص ١١٩) وذكر مثل هذا القول بعينه والشك فيه : هل أدرك الطاعون الجارف أولا ؟ عن يحيى بن معين ، أخبرنى بن الحسن بن على ، عن احمد بن زهير ، عن المدائنى ويحيى بن معين فلعل ميلاد أبى الأسود كان قبل الهجرة بنحو عشرين سنة فهو على ذلك مخضرم أدرك الجاهلية والاسلام ولكنه على التحقيق لم يحظ برؤية الرسول صلى الله عليه وسلم وقد عدوه فى عداد كبار التابعين رضوان الله عليهم

ولم يصل الينا كثير من أخبار أبى الأسود قبل زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وأول ما عرف من أمر أبى الأسود أن عمر استعمله على البصرة خلافة لابن عباس ثم استعمله عثمان ابن عفان وعلى رضى الله عنهما وكان كل أمره مع على فشهد معه المشاهد وكان من وجوه شيعته فلما نقل معاوية أمر المسلمين من الخلافة السمحة إلى الملك العضوض ، وقام بأمر الدولة رجال من شيعته لقى أبو الأسود عنتا كثيرا من عماله على البصرة والسواد ، والأخبار فى ذلك كثيرة لانطيل بذكرها ، إذ كان الغرض من هذه الترجمة التعريف بأبى الأسود تعريفا موجزا

وكان أبو الأسود من الشعراء المجيدين ، وله شعر كثير جيد ، وكان من محدثى التابعين يحدث عن عمر وعلى وعثمان وابن عباس ومعاذ وأبى ذر وابن مسعود وغيرهم ، وكان من أوائل القراء الذين أخذت عنهم القراءة وضوابطها ، روى عن ابنه أبو حرب ، قال الجاحظ : « أبو الأسود معدود فى طبقات من الناس ، وهو — فى كلها — مقدم مأثور عنه الفضل فى جميعها كان معدودا فى التابعين ، والفقهاء ، والشعراء ، والمحدثين ، والأشراف ، والفرسان ، والامراء والدهاة ، والنحويين ، والحاضرى الجواب ، والشيعة ، والبخلاء ، والصلع الاشراف ، والبخر الاشراف »

وأنت إذا قرأت ماذكر فى كتب التراجم والأدب عن أبى الأسود تمثلت رجلا حكيما فصيحا ذكيا نابغة موفق الرأى ، وهذه هى الصفات العالية التى سمت به الى أن يكون الواضع الأول لأجل العلوم العربية التى ضبطت اللسان وأبقته حيا الى يوم الناس هذا ، وحفظت القرآن من لحن اللاحنين ، ونفت عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين

الطبقة الرابعــــة

حمل علم النحو عن أبى الاسود جماعة ، يعدون فى الطبقة الاولى من طبقات النحاة واللغويين وسنذكر أشهرهم ونترجم لهم تراجم مختصرة

(١) عنبسة بن معدان

كان أبوه « معدان » رجلا من أهل ميسان قدم البصرة وأقام بها واستعمله عبد الله بن عامر على فيل كان له فسمى « معدان الفيل » . ولما نشأ عنبسة لزم أبا الاسود وعلم من عله وروى الشعر واجتهد فبرع ، قال أبو عبيدة معمر بن المثنى : « اختلف الناس الى أبى الاسود يتعلمون منه العربية فكان أبرع أصحابه عنبسة بن معدان المهرى ، واختلف الناس الى عنبسة فكان أبرع أصحابه ميمون الاقرن »

ولم نصل الى تاريخ مولد عنبسة هذا ولا وفاته ، ولكنه لقى الفرزدق وجريرا فلعل وفاته كانت فى حدود المائة الاولى من الهجرة قبلها بقليل أو بعدها

(٢) ميمون الاقرن

لم نظفر له بعد بترجمة يصح الاعتماد عليها ، مع أنهم زعموه أول من وضع علم النحو

(٣) نصر بن عاصم

قال السيوطى إنه أخذ النحو عن يحيى بن يعمر وقال ابن الانبارى : « قرأ القرآن على أبى الاسود ، وقرأ أبو الاسود على على رضى الله عنه فكان أستاذه (يعنى أبا الاسود) فى القراءة والنحو » وهذا هو الارجح إذ أن نصرا هذا معدود فيمن روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه فأخذه النحو عن أبى الاسود أشبه من أخذه النحو عن يحيى بن يعمر ، وذكروا أن وفاته كانت فى زمن الوليد بن عبد الملك واختلفوا ما بين تسع وثمانين وتسعين

وكان نصر فقيها ، وقارئا مجيدا ، عالما بالعربية ، فصيح اللسان ، واضح البيان ، قال عمرو

بن دينار : اجتمعت والزهرى ونصر بن عاصم فتكلم نصر فقال الزهرى : « إنه ليفلح العربية تفليحا » وكان محدثا ثقة جيد الرأى

(٤) عبد الرحمن بن هرمز

ليس فيما بين أيدينا من ترجمة أبي داود عبد الرحمن بن هرمز الاعرج ما يبين سنه اومولده وكان عبد الرحمن مولى لمحمد بن ربيعة بن الحرث بن عبد المطلب ، يعد من الطبقة الثانية من التابعين المدنيين ، قال ابن سعد : « ثقة كثير الحديث » ، و يعد فيمن أخذ القراءة عن أبى هريرة وابن عباس وعبد البر بن عياش بن ابى ربيعة . وكان عالما بالعربية ، ومن اعلم الناس بأنساب العرب ، يظنون ان مالك بن انس اخذ علم الانساب عنه ، ورحل الاعرج الى الاسكندرية ، ومات بها سنة ١١٧ فى ايام هشام بن عبدالملك ، قال الزبيدى : كان من اول من وضع العربية

(٥) يحيى بن يعمر

هو يحيى بن يعمر الليثى ، وكان من اهل البصرة ، تابعى ، قال الحاكم : « فقيه اديب ، نحوى مبرز ، سمع ابن عمر وجابرا وابا هريرة وأخذ النحو عن ابى الاسود » وكان من الفصحاء عالما بالعربية والحديث ، وكان رجلا شديدا لايبالى ، كره الحجاج ان يساكنه ببلد (وكان الحجاج إذ ذاك بواسط) فنفاه اليه خراسان فلما حضرها ولاه قتيبة بن مسلم القضاء بها فقضى فى كثير من بلادها كنيسابور ومرو وهراة . وكان يطلب الغريب فى كلامه ، قال محمد بن سلام : اخبرنى ابى ان يزيد بن المهلب كتب الى الحجاج « إنا لقينا العدو ففعلنا وفعلنا واضطررنا الى عرعرة الجبل » فقال الحجاج : ما لابن المهلب وهذا الكلام ؟ فقيل له : إن يحيى بن يعمر عنده ، فقال : ذاك إذن

ومات يحيى بخراسان فى ايام مروان بن محمد سنة ١٢٩

هذا ولعل يحيى بن يعمر كما ذكرنا قبل قد هجر النحو آخر ايامه ولم يأخذه عنه احد من اهل خراسان ، لاننا لم نجد فى الطبقة الثانية من النحاة من كان من اهل خراسان

(٦) عبد الله بن أبى إسحاق

هو عبدالله بن ابى إسحق الحضرمى البصرى ، يعد من القراء ، اخذ القراءة عن يحيى بن يعمر ونصر بن عاصم ، وقد عده بعض الكتاب من الطبقة التى أخذت عن أبى الأسود ، إلا أن هذا

لم يصح ، ولكنه أخذ عن يحيى بن يعمر أيام مقامه بالبصرة فلما نفى يحيى إلى خراسان وخلى عليه ظهر ابن أبى اسحق وعلا أمره فى أيام أهل الطبقة الأولى من النحاة وأعانه على ذلك علو سنه فانه مات ابن ثمان وثمانين سنة ١١٧ — أى فى السنة التى مات فيها الأعرج ، ولكنا نعده من كبار شيوخ الطبقة الثانية من النحاة ، وهو أول من مات من أهل هذه الطبقة من النحاة .

الطبقة الثانية من النحاة

شيوخ هذه الطبقة ثلاثة مبرزون : عبدالله بن أبى اسحاق وقدمضت ترجمته ، وأبو عمرو بن العلاء ، وعيسى بن عمر الثقفى . ونكتفى بالترجمة لهذين العلمين دون غيرهما ممن أخذ النحو ولم يبرز فيه ولم يعل

(١) أبو عمرو بن العلاء المازنى التميمى

اسمه زبان بن عمار بن عبد الله من بنى مازن بن عمر بن تميم ولد بمكة سنة ٥٥ أو ٥٨ وسكن البصرة ، وكان رفيق عبد الله بن أبى اسحق فتلقى النحو والقراءة معه عن يحيى بن يعمر ونصر بن عاصم وعلا كعبه فى القراءة والنحو وعد من القراء السبعة . وكان كثير الرحلة فاستكثر من الشيوخ . أخذ عن شيوخ مكة والمدينة والكوفة والبصرة وأعانه على البراعة فيما سلك سبيله من العلم رحلته وذكاؤه وطول عمره فانه عمر نحواً من مائة سنة — مات سنة ١٥٤ فى خلافة المنصور — قال يونس بن حبيب أبرع تلامذته « لو كان أحد ينبغى أن يؤخذ بقوله فى كل شىء ، كان ينبغى أن يؤخذ بقول أبى عمرو بن العلاء كله فى العربية ، ولكن ليس من أحد إلا وأنت آخذ من قوله وتارك إلا النبى صلى الله عليه وسلم » وقال أبو عبيدة «أبو عمرو أعلم الناس بالقراآت والعربية وأيام العرب والشعر » وكان محدثا ثقة : وثقه يحيى بن معين وغيره قالوا «صدوق حجة فى القراءة » وقال ابراهيم الحربى « كان أهل العربية كلهم أصحاب أهواء إلا أربعة فانهم كانوا أصحاب سنة : أبو عمرو بن العلاء ، والخليل بن أحمد ، و يونس بن حبيب البصرى ، والأصمعى» . قالوا وكانت دفاتر أبى عمرو ملء بيته إلى السقف ثم تنسك فأحرقها

وأخذ النحو عن أبى عمرو الخليلُ بن أحمد ، و يونس بن حبيب البصرى ، وأبو محمد اليزيدى ، ومعاذ بن مسلم الهراء ، وروى عنه الحروف «سيبويه»

(٢) عيسى بن عمر الثقفى

هو مولى من موالى خالد بن الوليد نزل فى ثقيف فنسب إليهم ، وكان أحد المحققين لعلم

العربية ، اكتسب الفصاحة من ثقيف ثم نزل البصرة فاخذ النحو عن عبد الله بن أبي اسحاق ولم نجده أخذ النحو عن أحد من نحاة الطبقة الأولى ولكنه برع وبرز فى عهد أبى عمرو ومات قبله بخمس سنوات — أى سنة ١٤٩ فى خلافة المنصور — وعنه وعن أبى عمرو صدرت الطبقة الثالثة من أهل العربية وذكر المبرد أن عيسى أخذ النحو عن أبى عمرو بن العلاء أيضا . قال ابن الأنبارى : «كان ثقة عالما بالعربية والنحو والقراءة وقراءته مشهورة» قال ابو عبيد القاسم بن سلام «كان من قراء البصرة وكان عالما بالنحو غير أنه كان له اختيار فى القراءة على مذاهب العربية ، يفارق قراءة العامة ، ويستنكره الناس ؛ وكان الغالب عليه حب النصب إذا وجد لذلك سبيلا ؛ منه : «حمالة الحطب» «الزانية والزانى» «والسارق والسارقة» «هن أطهر لكم» . أقول وهذا عجيب من عيسى بن عمر ولكنه كان يتقعر فى كلامه على فصاحته ، فلا عجب ، ونوادره فى ذلك كثيرة كقوله لما ضربه يوسف بن عمر بن هبيرة فى طلب ثياب استودعها عنده خالد بن عبد الله حين إمارته على العراق «إن كانت إلا أثيابا فى أسيفاط قبضها عشاروك» وكان عيسى ضريرا

وأخذ النحو عن عيسى بن عمر الخليل بن أحمد ولعل سيبويه لقيه وأخذ عنه أيضاً

الطبقة الثالثة

أجل شيوخ هذه الطبقة رجلان : أحدهما حفظ علم الأوائل من النحاة وأخذه الناس عنه وهو يونس بن حبيب البصرى ، والآخر حفظ علم الأوائل وبرع فى العربية وجدد علم النحو بما أوتى من قوة العقل وعلو الذكاء ومنه نبع سيبويه فسق النحو حتى أخصبت أرضه ونما نباته وهو الخليل بن أحمد شيخ الشيوخ جميعا

(٩) يونس بن حبيب البصرى

ولد يونس سنة تسعين وأخذ النحو عن شيوخ الطبقة الثانية فبرع وتفرد بمذاهب فى النحو والقياس وعقد حلقة بالمسجد الجامع بالبصرة ينتابها أهل العلم والأدب وفصحاء الأعراب والبادية ، وأكثر سيبويه فى كتابه من الرواية عن يونس ، وكان من عقلاء الرجال ، تخرج عليه كثير من اللغويين والنحاة كالأصمعى ، وعلى بن حمزة الكسائى ، وأبى زكريا الفراء وكثير من أهل العلم فى عصر الرشيد . وعمر يونس ومات فى خلافة هرون الرشيد سنة ١٨٣

(٢) الخليل بن أحمد الفراهيدى البصرى

قال النضر بن شميل : « أقام الخليل فى خص بالبصرة لا يقدر على فلسين وتلامذته يكسبون بعلمه الأموال » وهذه حاله فى العلم أيضا فلولا الخليل لم يكن سيبويه ، فلما كان الخليل وكان سيبويه وأخذ علمه عنه وحشا به كتابه الجليل طار اسم سيبويه فى كل مكان وملأ الدنيا وانزوى ذكر الخليل إلا قليلا وأهملت كتبه وضاع أكثرها . وقد كان الخليل من نوابغ الرجال وأفذاذ العرب ، شهد له معاصروه بأنه كان آية فى الذكاء وكانوا يقولون « لم يكن فى العرب بعد الصحابة أذكى منه » . اجتمع الخليل وعبد الله بن المقفع ليلة يتحدثان إلى الغداة فلما تفرقا قيل للخليل : كيف رأيت ابن المقفع ؟ فقال : رجلا علمه أكثر من عقله . وقيل لابن المقفع : كيف رأيت الخليل ؟ قال : « رأيت رجلا عقله أكثر من علمه » هذا مع ماشهد به له الأوائل من سعة العلم والتبحر فيه ، وليس أدل على نبوغ الخليل وعبقريته وتفرده من استخراجه العروض ، وحصره فى خمسة دوائر [1] استخرج منها الخمسة عشر بحرا المعروفة ، وكان الخليل قد تعلم الايقاع والنغم فنهما أحدث علم العروض بما أوتى من صفاء النفس وسرعة الخاطر ودقة الفهم وقوة الضبط ولم يستطع أحد الى يوم الناس هذا أن يزيد على ما أتى به الخليل بحرا واحدا إلا الأخفش فأنه اهتدى الى بحر واحد هو الذى يسمونه الخبب

ولولا ما ضاع من كتب الخليل لعرفنا كيف نرد كتاب سيبويه إلى الأصل الذى أخذ عنه من الخليل ، ونحن لا نشك فى أن أول كتاب وخيره وصل الينا من كتب المتقدمين فى النحو هو كتاب سيبويه إذ هو الكتاب الذى وضع على قواعد معقودة للكتاب كله ، وأرجح الرأى عندنا أن الذى عقد النحو هذا العقد الذى نراه فى (الكتاب) ليس هو سيبويه بل هو الخليل بن أحمد الذى عقد علم العروض هذا العقد الذى لم ينقض . وقد رأى الخليل فى سيبويه رجلا محكم العقل فاستصفاه بعلمه وأدبه ومنحه وقته وراحته فكان الخليل يقول له حين يزوره

(١) الدائرة فى علم العروض هى التى حصر الخليل بها الشطور لأنه وضعها على شكل الدائرة التى هى الحلقة وهى خمس دوائر : الأولى ، فيها ثلاثة أبواب : الطويل والمديد والبسيط . والثانية فيها بابان : الوافر والكامل . والثالثة فيها ثلاثة أبواب : الهزج ، والرجز ، والرمل . والرابعة فيها ستة أبواب : السريع ، والمنسرح ، والخفيف ، والمضارع ، والمقتضب ، والمجتث . والدائرة الخامسة فيها المتقارب حسب



« مرحبا بزائر لا يمل » قال أبو عمرو المخزومى — وكان كثير المجالسة للخليل — « ما سمعت الخليل يقولها لأحد الا لسيبويه » . ولا شك أن سيبويه كان فى ذلك الوقت شابا لم تنهكه الأيام والمصائب وكان الخليل قد أسن فأراد أن يلقى علمه الى من يزكو عنده و ينمو فألقاه الى سيبويه فأخرج منه (الكتاب) (١) وهذه الكلمة لا تكفى لتحقيق القول فى أمر الخليل وكتاب سيبويه فنؤجلها الى أوسع من هذه وأبرح

ونحن لا نعلم كثيرا عن منشأ الخليل إلا أنه ولد بالبصرة سنة مائة من الهجرة وعمر فبلغ أربعا وسبعين سنة والذى يفهم من تراجم هذا الامام أنه تلقى العلم صغيرا وانقطع له وعنى به فلم يبال بغيره ، ولم يطلب الرزق بعلمه لما كان من ورعه وطول صبره على المكاره وشدة إبائه

(١) وقد روى ياقوت فى معجمه قال : « قيل ليونس بن حبيب : إن سيبويه قد ألف كتاباً فى ألف ورقة من علم الخليل . قال يونس : ومتى سمع سيبويه هذا كله من الخليل ؟ جيئونى بكتابه . فلما نظر فيه رأى كل ما حكى (عنه) « يعنى ما حكى سيبويه عن يونس » فقال : يجب أن يكون هذا الرجل قد صدق عن الخليل فى جميع ما حكاه ، كما صدق فيما حكاه عنى » . فهنا ترى الدليل على أن أكثر كتاب سيبويه من علم الخليل وأدبه ، وهذا هو المعقول ، لأن سيبويه لم يعمر أكثر من أربعين سنة ، وقد جمع فى كتابه هذا أصول النحو كلها إلا ما ندر من شىء ، وهذا عمل لا يكاد يوفق إليه رجل وحده ، إلا مستعيناً برجل قد امتلأ علماً أو جماعة قد أفرغوا أنفسهم لهذا وحده ، والذى يدل على أن هذا الكتاب من علم الخليل لا من عمل جماعة ، أن الخليل كان إذا تكلم فى شىء من النحو مما استنبطه هو لم يفهم ما يقول أحد من نحاة عصره . وهذا الأخفش النحوى الجليل البارع يحدث فيقول « حضرت مجلس الخليل ، فجاءه سيبويه فسأله مسألة وفسرها له الخليل ؛ فلم أفهم ما قالا . فقمت وجلست له فى الطريق ، فقلت : « جعلنى الله فداك ! سألت الخليل عن مسألة ، فلم أفهم ما رد عليك ، ففهمنيه . فأخبرنى بها . فلم تقع لى ولا فهمتها . فقلت له : لا تتوهم أنى أسألك إعناتاً فانى لم أفهمها ولم تقع لى ، فقال لى : ويلك ! ومتى توهمت أنى أتوهم أنك تعنتنى ؟ ثم زجرنى وتركنى ومضى » .

فالخليل كما ترى هو الذي وضع للنحو أبوابه وأقسامه واصطلاحه الذى نراه فى كتاب سيبويه ، فان سيبويه تلميذ الخليل لم يأخذ النحو إلا عنه وزاد على ذلك أن الخليل منحه ما وضع للنحو من أبواب وأقسام واصطلاح حتى ان معاصريه الذين أخذوا النحو عن الخليل لم يفهموا ما كان يدور بينه وبين الخليل من الكلام فى النحو . وهذا باب عظيم فى تحقيق كتاب سيبويه نستوفيه بعد فى كتابنا عن العربية إن شاء الله تعالى





وتعففه ؛ فكان يمتنع على الأمراء والحكام ولا يبتذل نفسه بالتردد عليهم[1] فكان ذلك سببا فى انقطاعه للعلم والتبحر فيه والتوسع فى فروعه مدة طويلة من حياته حتى نبغ وفاق أهل عصره علماً وأدبا وورعا وخلقا . وصفه من رآه فقال : « كان الخليل رجلا صالحا عاقلا حليما وقورا » وقال النضر بن شميل : سمعت الخليل يقول : « إنى لأغلق على بابى فما يجاوزه همى » . وهذا هو خلق العلم ؛ فتدبر هذه الكلمة تعرف كيف نبغ الخليل وبرع ، ثم تدبر هذه الكلمة الحكيمة قال « لا يعلم الانسان خطأ معلمه حتى يجالس غيره »

الطبقة الرابعـــة

لف هذه الطبقة كلها تحت جناحيه « النسر النحوى » سيبويه شيخ النحاة فى عصره وما بعد عصره والبحر الذى أمد علوم العربية حتى زخرت وتلاطمت ، قال الجاحظ : « لم يكتب الناس فى النحو كتابا مثله ، وجميع كتب الناس فى النحو عيال عليـه »

كان أول أمر سيبويه فى طلب العلم أنه كان يطلب علم الآثار والفقه ، ولم تكن له عناية بالنحو ، ولعل ذلك كان وسنه إذ ذاك مابين العشرين الى الثلاثين — وكان يطلب الحديث من حماد بن سلمة بن دينار البصرى المحدث الفقيه النحوى فقال حماد : قال رسول الله صلى الله عليه

---

(١) كان للخليل رحمه الله راتب على سليمان بن حبيب بن المهلب بن أبى صفرة وكان والى فارس والأهواز . فكتب سليمان إلى الخليل يستدعيه فأجابه الخليل .

أبلغ سليمان أنى عنه فى سعة   وفى غنى ، غير أنى لست ذا مال
شحاً بنفسى . . . ، إنى لا أرى أحداً   يموت هزلا ، ولا يبقى على حال
الرزق عن قدر ، لا الضعف ينقصه ،   ولا يزيدك فيه حول محتـــال
والفقر فى النفس لا فى المال نعرفه   ومثل ذاك الغنى فى النفس لا المال

فقطع عنه سليمان راتبه فقـال الخليل

إن الذي شق فمى ضامن   للـــرزق حتى يتـوفانى
حرمتنى مالا قليلا ، فما   زادك فى مالك حرمانى

فبلغت الأبيات سليمان فكتب إلى الخليل يعتذر اليه وأضعف له راتبه .





وسلم : « مامن أحد من أصحابى إلا من لو شئت لأخذت عليه عيبا [١] ليس أبا الدرداء » فقال سيبويه «ليس أبو الدرداء» فقال له حماد : « لحنت ياسيبويه ، ليس أبا الدرداء » فقال : لاجرم لأطلبن علماً لاتلحنني فيه أبدا . فطلب النحو ولزم الخليل بن أحمد

وكانت فى لسان سيبويه لكنة ، وذلك لأن أصله من البيضاء بأرض فارس ، ونشأ بالبصرة ولم يعمر أكثر من أربعين ، وانتقل فى آخر أيامه إلى الكوفة لمناظرة الكسائى — وأمرها مشهور — ثم رحل إلى شيراز ومات بها سنة ١٨٠ تقريبا ، ونقتصر على هذا من ترجمة هذا الامام الجليل ؛ فقد مضى ذكره فى ترجمة الخليل ، وليس فى الوقت سعة

النحو فى الكوفة

رأيت فيما مضى أن النحاة جميعا إنما نشأوا بالبصرة وكثروا فيها وكانوا أئمة العربية فى زمانهم ، وما نشأ النحو فى الكوفة وكان مذهبا ضعيفاً إلا فى أيام الخليل بن أحمد وذلك لأن البصرة أقدم بناء من الكوفة وكان بها من صفوة الناس وأذكيائهم وعلمائهم من لم يكن مثلهم بالكوفة ، ولذلك تأخر ظهور علم النحو بها مدة طويلة

واعلم أن الخلاف المشهور بين الكوفيين والبصريين لم يحقق بعد تحقيقا وافيا شافيا ، وليس يمكن أن يحدد فى كلمة قصيرة موجزة كهذه فنكتفى بالاشارة إلى وجود هذا الخلاف ونشأته وننتقل إلى ذكر الطبقة الأولى والثانية من علماء الكوفة ونختم الكلام بهذا والله المستعان

الطبقة الأولى من الكوفيين

شيخ هذه الطبقة من أهل الكوفة هو « محمد بن الحسن بن أبى سارة » الملقب بالرؤاسى لعظم رأسه ، كان فى زمن الخليل بن أحمد ، وزعموا أنه أول من وضع من الكوفيين كتابا فى النحو وزعموا أنه قال : «بعث إلى الخليل يطلب كتابى فبعثت به إليه فقرأه ووضع كتابه » وزعموا أن كل مافى كتاب سيبويه من قوله « قال الكوفى » فانما يعنى به الرؤاسى ؛ ولكن مما لاشك

(١) فى معجم الأدباء « لأخذت عنه علماً » ومعنى الحديث على هذه الصورة فاسد باطل ، وقد بحثنا عن هذا الحديث فلم نجده وتوهمنا أن الصواب « لأخذت عليه عيباً » ليستقيم المعنى وقد ورد مثل هذا الحديث فى المعنى بشأن أبى عبيدة بن الجراح ، وفيه هذا اللفظ.





فيه أن الرؤاسى كان إمام أهل الكوفة فى النحو وعلى يديه نشأ الكسائى والفراء شيخا نحاة الكوفة بعده . ولا شك أيضاً فى أن الرؤاسى كان ضعيفا لا خطر له فى النحو ، ولولا أن الكسائى والفراء انتسبا إليه لما عرف ولا أبه به . وستعلم بعد أن الكسائى هو الذى جعل للكوفة نحوا امتازت به عن أختها البصرة

الطبقه الثانية

إمام هذه الطبقة الكسائى وتلاه الفراء تلميذه ورفيقه . والكسائى هو أبو الحسن على بن حمزة بن عبدالله بن عثمان من أصل فارسى ، وكان ولاؤه فى بنى أسد ، وتعلم الكسائى النحو وقد أسن ، وكان أحد القراء الذين عدوا بعد فى القراء السبعة . وأخذ الكسائى النحو واللغة عن معاذ الهراء والرؤاسى ثم نهضت همته به إلى الرحلة فنزل البصرة ولقى الخليل بن أحمد وجلس فى حلقته ولزمه مدة ثم سأل الخليل من أين أخذ علمه فقال له : من بوادى الحجاز ونجد وتهامة — وهم أهل الفصاحة والبيان — فخرج وأخذ من الأعراب علماً كثيرا ثم عاد إلى البصرة ليرى الخليل والنحاة بها فوجد الخليل قد مات رحمه الله وجلس بمجلسه يونس بن حبيب فجرت بينهما مسائل أقر له يونس فيها وصدره فى موضعه فكان هذا ابتداء ذيوع أمره فى النحو . ثم رجع إلى الكوفة ولقى بها رفقاءه فتتلمذوا له

واعتنى الكسائى بكتاب سيبويه فقرأه وصححه على أصله واستفاد منه ، وخالف سيبويه فى مسائل كانت هى السبب فى الخلاف الكبير الذى وقع بين البصريين والكوفيين فى تلك العداوة الشديدة التى حملها الكوفيون للبصريين . ولولا رحلة الكسائى بارشاد الخليل بن أحمد وكتاب سيبويه لبقى النحو فى الكوفة (رؤاسيا) ضعيفا لا قبل له بالبقاء مع نحو البصرة

ومات الكسائى سنة ١٩٧ بالرى فى عهد هرون الرشيد ، وكان يعوده فى مرضه لأنه كان مؤدب ولديه الأمين والمأمون

° ° °

هذا وكنا نود أن نستقصى بقية الطبقات من علماء الكوفة النحويين ثم نتبع ذلك بالكلام عن أسباب الخلاف بين المذهبين ، وكيف اختلط المذهبان بعد ذلك ومن أول من جمع بين المذهبين ، لكنا نعتذر عن هذا ، وعن الايجاز الذى اضطررنا إليه فى الكتابة عن أهل الطبقات ، والله الموفق لاتمام ذلك وإخراجه على أكمل وجه فى كتابنا عن العربية إن شاء ولله الأمر من قبل ومن بعد

